



التكامل بين الدين والعلم ما بعد كورونا

عبدالله زيعور*

مقدمة

يعتقد الباحثون أن العالم دخل مرحلة جديدة مع جائحة كورونا، فرضت تحولات ومفاهيم لم تكن واردة في بال أحد، وفي طليعتها موقع كل من العلم والدين والتداخل والانفصال بينهما في أذهاننا كما في واقعنا المعاش. لذا، يأتي هذا البحث الذي سنقاربه في فضائه: العلمي، والفلسفي مع مسحة أكبر لحضور الفيزياء وفلسفتها فيه؛ لرسم حدود العمل وصلاحياته والاختصاص لدى كل من العلم والدين، ثم نباشر بتحقيق موضوعي نشرح فيه أسباب التعارض المفتعل بينهما ونقدم أنموذجاً واقعياً يجعل من التقارب والتواصل قضية ممكنة، مستفيدين من المعطيات الجديدة والانقلاب في الأدوار لكل منهما نتيجة تطورات الجائحة، التي وضعت العلم في امتحان عسير، وفي ساعات شدة لم يكن يتوقعها له أحد قط، ثم نقدم الاقتراحات العملية لتعزيز التكامل كخيار إيجابي ومُلح لا بُدَّ منه للطرفين، في جهد نأمل أن يكون تأسيسياً، وأن يترجم بخطوات عملية بعد الانتكاسة العميقة للعلم، وتجدد النقاش مرّة أخرى حول الدور المفترض للدين، وبعد عودة الناس

* استاذ فيزياء الطاقة في كلية العلوم في الجامعة اللبنانية.

إلى الله عبر الصلوات في السّاحات، في تجربة استثنائية ستحفر آثارها في الأذهان طويلاً.

لم يكن متوقّعا أن يتصدّر نقاش الدين والعلم صفحات الأبحاث ووسائل التواصل الاجتماعيّ بالقوّة التي نشهدها، لولا تفشّي جائحة كورونا وتداعياتها العميقة على العالم بأسره، وتجاوز رقم الوفيات المليون إنسان، فلقد عاد السّجال من جديد ولكن هذه المرة استدعته لحظة الضعف العالميّة أمام الوباء، وأمام ضعف المواجهة، هذا بعد أن استطاعت الإنسانيّة سابقاً تسجيل انتصارات ماحقة على الأمراض والأوبئة بفضل العلم، العلم المنقذ الذي لم يكن وحده في الميدان؛ بل كان الدين دوماً إلى جانبه، والذي كان سبباً منذ فجر التاريخ، للبقاء إلى جانب البشر في التصديّ لما يواجهه الإنسان.

يمكن القول: إنّ كلاً من مصطلحيّ: الدين والعلم قد ظهرها خلال القرن التاسع عشر، حيث كان يقصد قبلها بالدين التقوى والعبادة ويسمى العلم «بالفلسفة الطبيعيّة أو الفلسفة التجريبيّة»، ولقد حاول فلاسفة العلم رسم الحدود بين العلم وميادين البحث الأخرى ومنها الدين، فقال كارل بوبر: إنّ الافتراضات العلميّة، على خلاف المبادئ الدينيّة، يجب أن تكون من حيث المبدأ قابلة للتكذيب، ثمّ ذهب آخرون إلى القول: إنّ إحدى الطرق للتمييز بين العلم والدين القول بأنّ العلم يتعلّق بالعالم الطبيعيّ، في حين أنّ الدين يتعلّق بكل من الطبيعة وما هو خارق للطبيعة، ثمّ شرح علماء أفكار الإنسان من خلال حالات الدماغ العصبيّة وليس بالعودة إلى النفس والروح غير الماديّة، ويستغرق فلاسفة العلم¹ بوصف التفاعل بين العلم والدين، فيميّز ستينمارك (2004) بين ثلاث وجهات نظر: الاستقلاليّة التي تعني عدم وجود تداخل بين الطرفين، والاتّصاليّة التي تقول بوجود بعض التداخل بين الحقول، ثمّ الاتّحاديّة بين المجالين، ولكل منها وجهة نظر وأركان وأبطال. الجدل حول العلم والدين عاد وتصاعد منذ ستينيات القرن العشرين، وشارك فيه قادة فلاسفة، ورجال دين، وباحثون. وأفردت الجامعات الأوروبيّة والأميريكيّة المجالات والكراسي الأكاديميّة والجمعيات العلميّة والمؤتمرات، وما كان جديراً بالانتباه القول: إنّ حركة واسعة من المسيحيّين الليبراليّين والتطوريّين في القرن التاسع عشر وبعده في القرن العشرين سعوا وبجهدٍ إلى التوفيق بين نظريّة التطور الداروينيّة، والمعتقد الدينيّ.

1- موسوعة جامعة ستانفورد للفلسفة، ترجمة عبد الحفيظ، 2019، Hekmah.org.

ثم استعر الجدل من جديد عبر كتاب هوكينغ ومولدينو «التصميم العظيم»¹ الذي شكّل ساحة التفاعل الأبرز بين العلم والدين في السنوات العشر الماضية، فيما تستمر حالة المناوشة على جهات فرعية بين العلم والكنيسة في أوروبا وأميركا من خلال المقولات المختلفة لنظرية التطور والأصل في الكون: الخلق أم الأزلية...

اتّسم النقاش أحياناً كثيرة بعدم الموضوعية، وتحكّمت روح المنفعة والمصالح والشهرة بمفاصل المعالجة، وخشي بعضهم على سطوته وماله. ودقّ ناقوس الخطر معلناً نفسه تارة إلى جانب العلم، ومُدّعياً تارة أخرى «أنّ العلم مهتد» ووضع بعضهم العلم في مرتبة الإله الذي يعبد، وكال للدين أبشع الافتراءات، واعتقد الإنسان الغربيّ أن حرّيته تترافق مع تقدّم قيمة العلم في المجتمع فجعله سائراً يحمي من خلفه نزعات التحلّل والتفكّك من ضوابط القيم، ولم يسكب العبرات بعد تراجع الدين وانزياحه من الحياة الغربية الفردية والجماعية، وزاد من تعقيد المشهد وحدّته أنّ محور المواجهة الحامل للدين يضمّ التكفيريين الإرهابيين، مثلما يضمّ المحافظين الجدد في صفوفه.

لقد أصيب بعض العلمانيين المغالين بالعنجهية، ووضعوا الدين والفلسفة معاً في حال صراع وتنافس دائم مع العلم، ولقد استهدف هوكينغ في كتابه «التصميم العظيم» الأبعاد الماورائية للفلسفة. وذهب إلى حدّ الإعلان عن موت الفلسفة التي برأيه لم تستطع مجاراة التقدّم العلميّ، ووصف ريتشارد فايمان الفلسفة أنّها بعيدة عن العلم. وعليه، فهي غير ذات أهميّة. وعلى الرّغم من أنّ العلم بدوره لا يقطع بنتائجه ولا يدّعي اليقين الجازم بقوانينه. لذلك، عندما نفتقد اليقين في نتائج العلم يكون السؤال المشروع عندئذٍ: كيف لنا أن نقبل أحكاماً مبرمة من بعض العلماء على الدين!!

الجوهر الإنسانيّ للدين

وردت في القرآن الكريم أهداف وجود الإنسان، مثل: إعمار الكون وتطبيق العدالة، والتحليّ بالقيم المثلى والعبادة. والدين نظام يضمن الوصول إلى تلك

1- التصميم العظيم، ستيفن هوكينغ وليوناردو مالينو، دار التنوير، بيروت، 2015م، ص 212.

الأهداف، ويؤكد النظام البديع الكامن في أرجاء الكون حتميتها، فلا يوجد هادف لا يخطط¹، ولا يضع الأنظمة الضامنة للوصول إلى الأهداف السامية، إن مهمة الدين بوصفه عطاءً ثميناً من الله تعالى هي الإمساك بمفتاح المعرفة، وهي سعي دؤوب نحو الكمال الروحي والمعرفي، والإجابة عن الأسئلة الكبرى للإنسانية نحو صياغة أكثر استقراراً لروح الإنسان وشخصيته، كما أن الدين حركة فاعلة لبناء الحياة الطيبة بأسمى صورها المثلى:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾². إن الصورة السامية في تقديم الدين، هي أن الدين يبعث الأمل في داخل الإنسان، إن جهوده وعطاءاته لبناء المجتمع وإقامة العدل واستثمار الكون لن تذهب هدرًا، وأكلها حاضر في الدنيا والآخرة، وفلسفة الدين هي تصوير الدنيا ميدان عمل وتنافس في العطاء البناء وخدمة الإنسان لأخيه الإنسان. ومن منظور الدين، إن كل عمل يقود إلى كمال شخصية الإنسان هو عمل حسن، وكل عمل يسهم في نقص شخصية الإنسان هو عمل قبيح، فالصدق والإحسان هما مظهر لكمال الخالق وعبرهما يتحقق الارتباط بالأصل، وبهما أيضًا يتحقق الارتباط بالمنتهى بما يتضمناه من إحساس بالمسؤولية تجاه الناس والأمة.

كما أن المجتمع الذي يحتاج إلى النظام العادل، يتلقى النظام المرسل من الله تعالى، العالم بنقص المجتمع والحكيم في اختيار الطريقة الأنسب لتحقيقه، ويصبح مطلب تحقيق العدالة عنوانًا حاكمًا على قاعدة الآية الكريمة: ﴿لِيُقُومَ أَلْنَّاسُ بِأَلْقِسْطٍ﴾³ ولا يكتمل إلا برفع الحواجز أمام الرذيلة وإحكام القانون. والأهم من كل ذلك التعويض الأخروي؛ ليكون تحقيق العدالة أرقى أشكال العبادة الإنسانية، وأعظمها أجرًا عند الله.

وفي الرؤية الأكثر شمولية الدين، وتحديدًا الدين الإسلامي، هو صاحب الفضل في النقلة الحضارية الهائلة للأمة من نظام البداوة والجلافة إلى مشروع حضاري مُشع بقيم العدالة والإنسانية. وتزدحم مكتبات العلم بكتب العلماء الأفذاذ في

1- الدين بين معطيات العلم وإثارات الإلحاد، منير الخباز، دار المعارف الحكيمية، بيروت، 2018م، ص 143.

2- سورة الأنفال، الآية 24.

3- سورة الحديد، الآية 25.

الاختصاصات الإنسانيّة والتطبيقية، ممّن أضافوا إشعاعات في العلوم والمعارف، وهم من أشدّ الناس إيمانًا بالله، وبدور الدين الإيجابي في حياة البشر.

تحديات حقيقية أمام العلم

ينهض صرح العلم بإسهام العلماء وتعاونهم من مشارب مختلفة لأجل تأمين المعرفة والتقنية والقوة والاقترار للأمم، ولا يختلف اثنان إزاء ما قدّمه العلم من نتاجات عظيمة وفّرت الجهد البشري، وفتحت آفاق معرفيّة أضاءت للفلسفة وللدّين دروبًا جديدة، ولا يسعنا المقام هنا للتفصيل بإيجابيات تقدّم العلوم، لكن مشكلة العلم أنّه سلاح ذو حدّين، والحدّ الخطر هنا أنّ العلم لا هويّة له، وممارسة البحث العلمي لا تشترط إذنًا لمزاولة البحث، فكل الأمم تستعين بالعلم، وقد يتحوّل العلم وبسهولة إلى أداة قتل وظلم وغمط للحقوق الإنسانيّة. إنّ من سلبيات العلم أنّ بيئته محطّ أنظار السلطات والأنظمة الحاكمة سعيًا إلى استثمار نتاجها؛ لتصبح رافدة قوّة وبأس لتلك الأنظمة والسلطات، وبيئة العلم لا تموّل ذاتها؛ وإنّما تحتاج إلى تمويل من خارج منظومتها وغالبًا من السلطة السياسيّة والنظام الحاكم، وهي مضطرة أن تخرج في كثير من الأحيان عن قيم العلم وأخلاقيّاته لتبحث في إنتاج أسلحة الدمار الشامل لقتل الأبرياء العزل إرضاءً للبيئية السياسيّة الحاكمة.

إنّ قسمًا كبيرًا من المعطيات والنتائج العلميّة المنشورة لا تمتّ إلى الحقيقة بصلة، إمّا عن جهل أو للحصول على سبق إعلامي، أو لذرّ الرّماد في العيون تجاه حقائق علميّة مهمّة وسريّة وغالية الثمن. أمّا النتائج الدقيقة والحساسة فهي بالأصل لا تنشر. وتحقيق الإنجازات والاكتشافات العلميّة هو مظهر من مظاهر الحرب والجاسوسية بين المحاور الدوليّة المتنازعة وميدان تنافس فيما بينها. كما أنّ جزءًا من التطوّر العلمي قد اكتمل على حساب المستضعفين وسرقة ثرواتهم، فالمواد الخام اللازمة للصناعة، على سبيل المثال، هي مناجم الدول الفقيرة المستعمرة: فرنسا في الجزائر، بريطانيا في الصين والهند والخليج، إيطاليا في ليبيا،... كما أنّ العلم في مسار تطوّره أساء إلى البيئة، وكان سببًا مباشرًا للتلوّث النوويّ أو الكيميائي؛ بسبب محرّكات الطائرات، والسفن، والسيارات، والمصانع.

إنَّ خطورة انحدار العلم، وفقدانه المعايير الأخلاقية، وتحوّله إلى مهنة ارتزاق¹ يرتبط بالضغوط التي تمارس على العلماء بوجود:

- 1- النشر كشرط للترقيّ الوظيفي وللمنح والشهرة.
- 2- إعلان نتائج علمية غالباً ما تكون موضع جدال، أو تكون خارج إطار أخلاقيات العلم، أو قد ترتفع فيها نسبة الغش طالما أنّ الهدف هو إصدار النتائج لأجل الترقيّ الوظيفي، بغضّ النظر عن مفاعيلها الخطرة على المجتمع.

كما يستثمر بعض العلماء والباحثين في الصورة الإيجابية التي يخترنها المجتمع عنهم، فالباحث عند الناس خبير ومرجع علمي لا ينطق إلا بالحقيقة العلمية المجردة، ولا يلتزم إلا بالقيم العلمية وحدها دون سواها، والعالم هو مثل أعلى ومرشد وناصح أمين. من جهة أخرى، إنّ نتائج العلم تبقى محدودة على الرغم من توسّعها، وهي مكبلة على مستوى تطوّر التقنيات المتاحة، أمّا النقاش في صدقيتها فنعود فيه إلى أن صحّة حقائق العلم ترتبط بتطوّر أجهزة الرصد والقياس، فنحن مثلاً نعلم عن الكون بقدر ما تسمح لنا التلسكوبات والمراصد المزروعة في الأرض والفضاء، فما هو متوفر من معارف حول الكون والنشأة؛ إنّما هو جزء من الحقيقة الكاملة عن الكون ولربما تكون استنتاجاً خاطئاً فيما لو تطورت وسائل المراقبة والمحطات الفضائية والأقمار الاصطناعية المرسلة إلى أعماق الكون، لتحلّ محلّها نظريات ومفاهيم جديدة أكثر تجانساً، وأقوى تماسكاً من التي كانت قبلها. إنّ المحدودية والتغيّر هما سمات الحقائق العلمية.

مثال آخر حول محدودية نتائج العلم؛ عندما يريد العلم أن يكتب قصة ولادة الكون، فإنّه يكتب تحقيقاً في قضية لم يشهدّها! فيما تنحصر وسائل التحقيق والاستجواب بالأشعة الواصلة إلينا من الكون فقط بالأشعة. ولا يمكن للعلم التأثير في مسار عمل الكون، ولا يمكن للعلم أن يعيد خلق الكون ويكرر التجربة، ونحن ليس لدينا إلا كون واحد نعيش فيه ولا تأكيد لوجود أكوان أخرى ولا تواصل معها فيما لو وُجدت، ولا يمكن للعلم والإنسان الباحث أن يخرج من الكون ويراه من الخارج، وعندما نخرج منه نبقي جزءاً منه؛ لا بل نحن أسراه

1- أخلاقيات العلم، ديفيد رزنيك، في: سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد 316، 2005م، ص

رضينا أم لم نرضَ! كما يؤكد باحثو علم الفلك والكويّيات أنّ قوانيننا المعتمدة علمياً في الفيزياء والكيمياء لا تصلح لدراسة ما يجري في باطن النجوم، وهي قاصرة علمياً عن وصف حقيقة التفاعلات الباطنية باليقين العلميّ الذي هو شرط لاعتماده كعلم، ونظريّاتنا العلميّة مرتبطة بالشروط الأساسيّة والابتدائيّة زمنياً ومكانياً، فكلمّا تقدّمت علوم الفيزياء، تكشف مدى الجهل بأبواب العلم، كما أنّ وجود اللّانهاية في المعادلات الفيزيائيّة والرياضيّة؛ إنّما هو تعبير عن عجز الإنسان بقدراته المحدودة عن الإحاطة بالكون من حوله.. فما بالنّا بالأكوان المتعدّدة!!؟

إنّ بعض الكُتّاب في مجال العلوم التطبيقية، وتحديدًا علماء الفيزياء والفلك عندما يكتبون في الفلسفة يكتبون بلغة حالمة لا علاقة لها بالواقع الذي تتحكّم فيه أطراف وقوى سياسيّة، ونزعات عنصريّة وطائفية مقيتة من شأنها أن تضع البشرية دوّمًا على حافة الحروب الكبرى: ويصل الحلم لديهم إلى «حضارة كوكبيّة تفرض سيطرتها على قوى كوكبنا، ثمّ تتقدّم نحو حضارة كونيّة ستكون بطيئة وعلى مراحل، والوصول إلى الحضارة الكوكبيّة سيتمّ عبر الثورات العلميّة التي تطلق قوى هائلة كثورة الاتّصالات السريعة، وانفجار وسائل التواصل الاجتماعيّ التي تصنع قيمًا تحطّم الحدود، وتؤسّس لثقافة عالميّة ممهورة بالقيم الأميركيّة المتعجرفة تحطّم الحدود الثقافيّة بين الأمم، وتفرض نفسها بقوة امتلاك العلم والثقافة»¹.

إنّه الإيمان المبتور بالعلم الأحاديّ كمنطلق وحيد نحو حضارة تؤمن سعادة تبحث عنها الذات الإنسانيّة. ولكن، هيهات أن يصل الحالمون إلى تلك السعادة فيما النفس الإنسانيّة غارقة بشقاء الجشع والغاء الآخر بأفكار استكباريّة عنصريّة كامنّة متأصّلة في الغرب قبل غيره، ترسم التوازنات، وتحمل خميرة الحروب المتجدّدة، وتقود إلى شقاء متجدّد.. وعليه، لا يحقّ للعلم القاصر عن الإمساك بالحقيقة الكاملة عن الكون أن يجابه الدين بما هو نظام حياة وهداية، يحمل نظرة شاملة للوجود، ومع قيم باقية ما بقيت الذات الإنسانيّة.

1- رؤى مستقبلية، ميشيل كاكو، في: عالم المعرفة، الكويت، عدد 270، 2001م، ص 32.

التعارض المفتعل بين العلم والدين

لم يستوعب كثيرون أنّ للعلم والدين مَهْمَتَيْن مختلفتين سبق أن رسمنا الحدود بينهما. كانت النزاعات بين الطرفين تحدث في كل مرة يجري توظيف أحدهما ضد الآخر سعياً إلى مكسب أو شهرة أو سلطة، أو عند فشل العلماء في التمييز بين الأحداث والمعتقدات العلمية. يحدث التعارض عندما يحاول أحد الطرفين الدخول إلى ميدان اختصاص الآخر، ويحدث التعارض عندما يتبنى بعض العلماء مقاربتهم العلمية كطريق حصريّ ووحيد لمعرفة الحقيقة، وينكرون باسم العلم سائر مراتب الواقع التي لا تعرف بالمناهج التجريبية في البحث والاستقصاء. هنا يشدّد الدين، كسبيل من سبل المعرفة، على رفض وجهة النظر هذه ويقطع بوجود مسالك أخرى للوصول إلى المعرفة، وأهمّها الكتب السماوية المنزلة، فضلاً عن إلهام العقل. وفي الوقت نفسه، يقبل الدين التجربة لمساعدة الإنسان على فهم الواقع، لكنّه لا يحسبها مؤهلة حصراً لتكشف عن كامل الحقائق وراء عالم المادة.

تمثّلت خصوصية العلم في أنّه لا يتقدم ما لم ينشأ في بيئة ثقافية تمتلك بواعث هذا التقدّم، والعلم وحده لا يعمل في الفراغ؛ بل يحرث أرضاً مهّدتها الثقافة السائدة، وتفاعل العلم مع المجتمع حقيقة لا سبيل لإنكارها، كما أنّ الدور الأساس للعبقريّة الفرديّة لا يعني البتة أنّ العلم ظاهرة منعزلة بقدرتها الذاتية أو بقوة دفعها الخاصّة، إن تفاعل العلم مع المجتمع حقيقة لا مجال لإنكارها!

تاريخياً، كانت بدايات التعارض مع الدين في أوروبا مع بداية الثورة العلمية، ومع توسّع العلوم التجريبية، ومع تضارب صورة الأرض ودورانها والمجموعة الشمسية والكون عمومًا، مع وجهة النظر الدينيّة «الشرعية» في أوروبا آنذاك، والقائلة بمركزيّة الأرض في الكون وبتسطّحها. وتعمّق الشرخ مع نشوء فلسفات ماديّة ادّعت انتسابها إلى مقولات العلم في القرون الثلاثة الماضية، وكانت معادية للفلسفة اللاهوتيّة، ثمّ ظهرت طبقتان في المجتمع: رجال العلم ورجال الدين، ومع تقدّم العلوم بوتيرة هائلة، فقد الفكر اللاهوتيّ حماسه لتقديم أجوبة فعّالة ومقنعة، في مواجهة العلم والتيارات الفلسفية التي احتمت بالعلم. ومع الأسف، عجز اللاهوت عن صياغة وجهة نظر حول عمل الكون ونشأته، ولم يواجه احتياجات

1- فلسفة العلم في القرن العشرين، يمنى طريف الخولي، عالم المعرفة، الكويت، عدد 264، 2000م، ص 452.

الناس والعلماء الفكرية والعقلية.

أما في أسباب هذا التعارض، فإن العلم الحديث تجاوز مفهوم علم الطبيعة، أو علم التجربة بالمعنى الحصري للكلمة، وعندما خاض في أصل الكون وجوهر المادة وفكرة الزمن والنسبية وسواها؛ إنما اقترب وطرق باب الفلسفة بقوة، وقدم لها وقائع دامغة وحقائق أجبرتها على إعادة النظر في كثير من مقولاتها السابقة. وأنتجت الفلسفة فيما بعد ما عرف بفلسفة العلم، وظهرت على الهامش فلسفات علمية، وتبين في النهاية أن العلم تجاوز في بعض وجوهه دور الدين ووظيفته، وفرض إيقاعاً جديداً لم يكن مألوفاً من قبل. ثم بالغت الفلسفات العلمية في تقويل العلم ما لم يقله، فذهبت النزعة العلمانية المغالية (scientism) في الدعوة لانفلاش العلم وتطبيق نتائجه على العلوم الإنسانية. وعمدت إلى تطبيق المناهج التجريبية وتحديداً الكمومية منها (Quantum)، والتي لا تعتمد القيم كموضوع في أبحاثها على الظواهر الإنسانية اجتماعية كانت أم نفسية، والتعاطي مع هذه الظواهر على نحو يبدو معه الإنسان كما لو كان كتلة لحم وعظم أو جهازاً روبوتياً يفتقد الحرية والغائية والقيمة. كانت المشكلة في التعاطي مع الإنسان كموضوع فيزيائي لا شأن له بالقيم.

كان من أزمات العلم أنه أفلتت من سيطرة العلماء والباحثين؛ بل استثمرت فيه الدولة ثم المجتمع، وأتى فيما بعد إلحاح المصانع ومؤسّسات الإنتاج الحربي، فطغى عامل الإنتاج والربح على عامل العقل والفن والعلم، ثم نشأت مفارقة لافتة في مدلولاتها: صار للإنسان القدرة على تغيير العالم بسرعة تفوق إدراكه لما يفعل!! وبات على الإنسان ترويض الطاقات الهائلة للعلوم وضبطها¹.

في توصيف للتراكم السريع للمعارف والعلوم، وارتفاع بناء الحضارة الحديثة، في ظلّ افتقادها للأساس الروحي العميق والثابت، يقول أشفيتسر في كتابه فلسفة الحضارة: إن علينا أن نعمل عملاً شبيهاً بعمل الذين يعيدون بناء كاتدرائية تحطمت أسسها تحت ثقل البناء الضخم، فالنزعة التخصصية الاحترافية في العلم باتت خطراً على الفكر الجاد، وباتت توهم من قوة العقل التوجيهية وتفقد العقل القائد توازنه؛ بحيث يضيع الكل في الأجزاء فنصل إلى نقطة ينطبق علينا فيها القول المشهور:

1- فلسفة العلم، د. صلاح قانصو، دار التنوير، بيروت، 1983م، ص 234.

إننا نعرف ثمن كل شيء ولا نعرف قيمة أي شيء!»¹.

لم يعد العلم نشاطاً منزوياً يقتصر في بحثه على فئة قليلة من البشر؛ وإنما بات مؤسسة مُتعددة المهامّ تخدم مصالح الأفراد والشركات والأنظمة، ولئن قرّب العلم المسافة بين البشر، وزاد من تبادلهم وتفاعلهم لا سيّما عبر وسائل التواصل الاجتماعيّ مؤخراً، فإن التقارب أدى إلى أمر من اثنين: إحكام الصلة والتفاعل الإيجابي بين البشر، أو حملهم على مواجهة بعضهم بالحرب، مع انقسام العالم إلى معسكرات وازدياد سباق التسلح الذي يعود بالمال الوفير على الشركات الضخمة الحاكمة.

شكّل كلام ستيفن هوكينغ في كتابه «التصميم العظيم» الذي يجتاز فيه حدود العلم، وينطلق بكلام لا علاقة له بالجدّ والواقع مطلقاً نموذجاً صارخاً عن التعارض المفتعل بين الدين والعلم، الذي تسبّب به مافيات نبتت حول هذا العالم المرموق سعيّاً وراء الشهرة والمال الوفير، فقال: «لا توجد قيود على خلق أكوان بأكملها؛ بسبب وجود قانون مثل الجاذبيّة، حيث يمكن للكون أن يخلق نفسه من لا شيء، وسوف يفعل ذلك بالطريقة التي تمّ وصفها سابقاً. الخلق التلقائيّ هو السبب في أنّ هناك شيئاً بدلاً من اللاشيء؟... ليس من الضروريّ أن نستحضر إلهاً لإشعال فتيل الخلق، وترتيب انطلاق الكون»².

إنّ كلام هوكينغ أنّ «الكون يخلق ويتناظم» وغير ذلك هو حشو أقلّ ما يُقال فيه أنّه لا يمتّ إلى العلم بصلّة، كما يحوي كلاماً عن تاريخ مستغرب للعلم، ونظريّات هجينة تستجدي أسواقاً لتصريفها، في كتاب يخلو من أيّ مرجع علمي، أو أيّ معادلة رياضيّة، وكذلك النزج بأساطير مضحكة للأديان الوثنيّة في أدغال أفريقيا وصحراء أستراليا، مروراً بديانات الهنود الحمر، وانتهاءً بقصّة الخلق في الكتاب المقدّس، وقصّة صدام العلم مع هذا الكتاب، حيث يعن «هوكينز» في السخرية تورية وتصريحاً لمخالفة تلك القصص للعلم، في دعوة منه للقارئ؛ لكي يتراجع باسم العلم عن الدين إلى الإلحاد. وهو عندما يفعل ذلك يتناسى موقع العلم في الإسلام، والحثّ على طلبه ووجوب المُضيّ بأسبابه، وتعدّد تلك سقطة مُدويّة

1- فلسفة الحضارة، ألبرت أشفيتسر، ترجمة عبد الرحمن بدوي، www.kutub-pdf.net.

2- «التصميم العظيم»، ستيفن هوكينغ، ليونارد مولدينوو، دار التنوير، بيروت، 2015م، ص

لهوكينغ نزعته عن كتابه الموضوعية وشروط الحد الأدنى من الكتابة العلمية، شأنه شأن الغرب الذي تعمّد وعلى امتداد مئات السنين التحامل على الإسلام، وطمس قيمه الإنسانية وتغييب رؤاه الفلسفية التي تعلي من شأن الإنسان، وتصلح أنموذجاً للإنسانية في بحثها عن الأمان والسعادة. لقد كتب هوكينغ كلاماً لا علاقة للعلم به، وكان من الأولى أن ينأى بنفسه عن التدخل في مسار العلم الحازم والصارم، وألا يقول العلم ما لم يقل؛ ما يؤكد أن المشروع المراد كان زلزلاً إعلامياً بلبوس الشرعية العلمية، ربما بحثاً عن مكانة مرموقة في تاريخ الفيزياء على غرار نيوتن وشروندغر وبلانك واينشتاين. إن العلم، وبحدوده الصارمة، لا يتحدث قطعاً عن الخلق وكيفية الخلق وهي ليست من مهامه، والباحث الملتزم سرعان ما يقول أن الخلق مفهوم خارج مراكز الأبحاث العلمية، وهو إيمان وقناعة ذاتية، وهنا يخلط هوكينغ بين العلم والرأي الشخصي¹ ومشكلته في ذلك أنه يصدر رأياً شخصياً يتجاوز فيه حدود القوانين العلمية، ويدّعي أن من يقف بوجه أفكاره إنما هو في الموقع نفسه مع القبائل الأمية في أدغال أفريقيا.

ما يزيد من حدة التعارض والتصادم أن «جبهة الدين» من جهتها غير متجانسة، فأهل العلم سبق أن صوّبوا على مضمون الكتاب المقدس الذي «تحدث» عن كفيات ومهل في أصل الكون ونهايته، كذلك صوّب هوكينغ وفريقه على جبهة الدين من هذا الموقع ونالوا من الدين المسيحي بلا شفقة ولا رحمة. ومنذ الصدام الأول في القرون الوسطى وما بعدها رفض الغرب الدين ونحاه جانباً، ونظر لاعتماد العلمنة والفصل الكامل للدين عن الحياة. ولقد باع رجال الدين للناس أراض في الجنة وواجهت الكنيسة قوانين العلم وكان الصدام مدوياً ومكلفاً وفي غير مصلحة الكنيسة. ولم يعد من السهل إقناع الرافضين للدين أن جوهر الدين براء من كل تلك الممارسات، وأن الإسلام مثلاً يقول بالعلم ويعده واجباً. لكن الغرب لم يتعاط مع الإسلام بروح الموضوعية المجردة، ولم يقرأ في دعوته إلى العلم؛ بل حكم عليه من خلال أسوأ أنموذج قدّمه التكفيريون، بعدما سبق وتعامل معه من خلال مصطلحات سلبية منقّرة كالإسلاموفوبيا.

1- الله والكون برواية الفيزياء الحديثة، عبد الله زيعور، دار المعارف الإسلامية، بيروت، 2017م، ص 116.

التقارب بين العلم والدين وتكاملهما

يتأسس أنموذج النزاع بين العلم والدين في مقاربتة التاريخية على الصدامين اللذين حصلا في محاكمة سلطة الكنيسة غاليليو في العام (1633م)، ونظرية التطور في العام (1838م)، لكن في المقابل الغالبية العظمى من العاملين في مجال الدين والعلم لا يقرون بالتنازع في ما لجأ بعضهم إلى إعادة وقائع محاكمة غاليليو بعناية ليستنتج أن الصراع لم يكن بين الدين والعلم؛ وإنما بين العلم وبين «الطبيعية».

أما أهل أنموذج الحوار فيقترحون علاقة تبادلية تفترض، عبر الحوار، وجود أرضية مشتركة بين المجالين، فعندما يدعو الإسلام إلى افتراض أن الكون منظم ومصمم على حدّ سواء، فللمرء أن يتوقع وجود قوانين يمكن اكتشافها من جراء هذه الفكرة. كما أن الخلق بوصفه نتاجاً لإرادة الله الحرّة فهو محدود القدرة. لذلك، لا يمكن تعلّم قوانين الطبيعة من خلال التفكير المسبق؛ ما يحثّ على إجراء البحوث التجريبية، ويستعمل العلماء المؤمنون مصطلح «التصميم الذكي» لخالق الكون وناظمه. إن أنموذج التكامل هو الأكثر امتداداً بين العلماء والفلاسفة ورجال الدين، وتحدّد أشكاله بالعمل على استخدام العلم لإثبات وجود الله وبمبادرة إطار الدين؛ لأن إثري أرضية عمل العلم بالقول أن الكون مرشّد ومنظم فبدهي أن يعمل بالقوانين. في الغرب، برزت تيارات أدركت خطورة ما نحن ذاهبون إليه بالعلم الأعمى فنادت بتوحيد العلوم والمعارف بتعميم فائدتها والتمسك بالبعد الروحي للعلم وذلك ما اصطلاح عليه بالدعوة إلى «صوفيّة المعرفة». ويمائلها في العالم الإسلامي دعوات «لأسلمة العلوم والمعارف، وتكريس التوازن بين المادّة الصمّاء، والبعد الروحي، والقائم على محوريّة الإنسان في تكافله وتعاضده مع أخيه الإنسان». وفي المُجمل، فإنّ القيم الأخلاقية المشتقة من الدين يمكنها أن تحدّد أطر البحث العلمي وعندما نمسك بزمام العلم لتحدّد أهدافه في خير البشرية وسعادتها، يمكننا أن نحسب العلم «علمًا دينيًا»، وحيث إنّ العلم لا هوية له، وهو عاجز عن تفسير نفسه بنفسه، فهو ملزم حتمًا أن يستمدّ أهدافه وقيمه من مصادر فلسفية ودينية. وعلى الباحث، في مرحلة معينة، أن يحدّد هويته العلمية عبر بحوثه، وأن يحسم خياراته للخير أم للشرّ.

تاريخيًا، منذ القرن التاسع عشر، فإنّ دور الدين والفلسفة يتعاظم في ترشيد العلم

مع تقدّم العلم، فالفيزيائي الشهير ماكس بورن ذهب إلى «أنّ الفيزياء لا تحافظ على حيويّتها إلا حينما تدرك المعنى الفلسفيّ للنتائج»¹. واينشتاين كان يحضّ على تحقيق التلازم بين العلم والفلسفة؛ فيقول: «في بدايات القرن العشرين، لم يعن إلا القليل من الفيزيائيين بالتفكير الفلسفيّ. أمّا الآن، فقد أصبح جميع الفيزيائيين تقريباً فلاسفة»، فيما ماكس بلانك أبرز فيزيائي القرن العشرين ذهب بعيداً في التكامل بين الفيزياء والفلسفة فقال: «إنّ نظرة الباحث إلى العالم تحدّد اتجاه بحثه»². أمّا هوكينغ فقد كتب في كتابه «الموجز في تاريخ الزمان» قبل شططه في كتابه الأخير التصميم العظيم: «لقد وصلنا إلى مرحلة يقول فيها أحد الفيزيائيين عندما سئل: ماذا كان يفعل الله تعالى قبل خلقه الكون: فلم تكن إجابته: كان يحضر جهنّم لمن يطرح مثل تلك الأسئلة وبدلاً من ذلك كان يقول: إنّ الزمان ملك للكون الذي خلقه الله، وإنّ الزمان لم يكن موجوداً قبل بداية الكون»³.

على صعيد آخر، فإنّ التأمّلات العلميّة في المجالات التي هي خارج نطاق رقابة الإنسان وسيطرته تبدو قاصرة عن حلّ مشاكل أساسية في الوجود، وعلى المرء أن يسير إلى ما هو أبعد من نطاق العلم لكي يفهم بعمق، والعلم لا يستطيع العمل بمفرده دون فرضيات الاعتماد على معطيات الحواس، وفهم الطبيعة بالعقل البشريّ، ومهما تطوّر نتاج العلم، فإنّه لا يقدر على تقديم إرشاد علمي المنشأ للإنسان، وهو وإن اقتصر على معطياته الذاتية، فهو لا يستطيع تفسير نجاحاته، ولا يستطيع التحكم بما هو خارج العلم في الكون، وقد سبق أن العلماء والفلاسفة كانوا يستفيدون من خصوصية بعض الأبحاث لينسّقوا ويعملوا في المختبرات جنباً إلى جنب: على سبيل المثال، في الفيزياء النظرية، وعلوم الأعصاب، وبعض ميادين علوم الأحياء، وبشكل عام وحينما تكون المقاربات العلميّة والفلسفيّة متميزة بعضها عن بعض، إلا أنّها كانت تتقاطع، ويمكن القول بأنّ هناك تواصلاً بين الدين والفلسفة مع العلم، وبالأصل، فإنّ مسألة التواصل بين العلم والفلسفة

1- فلسفة الفيزياء، محمد عبد المطلب، منشورات وزارة الإعلام العراقية، بغداد، 1977م، ص 12.

2- أوجه التدخّل بين الفيزياء والميتافيزياء، عبد الله زيعور، في: مجلة المنطلق، بيروت، عدد 119، 1998م، ص 146.

3- موجز في تاريخ الزمان، ستيفن هوكينغ، دار أكاديميا، بيروت، 1990م، ص 27.

هي مسألة فلسفية بحثية!! ومآل العلاقة بين العلم والدين هي في الحوار والتفهم المتبادل. إن الدين والعلم سبيلان يتفاعلان في سبل المعرفة، والدين يتقدم في كل ميدان يعجز فيه العلم عن تقديم الإجابات وهذا مظهر من مظاهر التكامل... والإسلام يقول: إن المنهج التجريبي مقارنة مشروع للمعرفة، وأكثر من ذلك إن المدلول العميق للمنهج العلمي وللعلم المعرفي يمكن تحقيقه ليس بالنظر إليهما من خارج الدين؛ بل من داخل السياق العقلي والميتافيزيقي والإسلام بوصفه ديناً سماوياً ينظر إلى كل نشاط بشري على أنه ذو معنى أخلاقي والأنشطة العلمية تحمل قيمًا أخلاقية، فالدين كمصدر أساسي للقيم يقع في موقع الملهم للتقدم العلمي على أسس أخلاقية. إن افتراض الدين أن الطبيعة عقلانية مرتبة ومرشدة، يعني أنها تستجيب للتفسير العلمي، والكون وفق مقولة الدين مفتوح أمام العقل البشري، وعندما نزع الدين القدسيّة عن العالم سهّلت مقارنة الكون علمياً¹.

لا يعالج العلم مشاكل الإنسان وأمنه النفسي، وهو عاجز عن حل مشاكل تفكك الأسرة والتي أضحت سمة بارزة من سمات المجتمع الغربي. لذا، تبرز الدعوات إلى تحقيق التعاون بين الدين والعلم. «لو تحولت جامعاتنا إلى جامعات علمية بحثية، وخلت من الدين والأخلاق، فستلقى المصير ذاته الذي منيت به المجتمعات العلمية الغربية، فالمجتمع العلمي الغربي مجتمع علمي لكنه يفتقد لعنصر السعادة، ويعاني من فقدان الأمن النفسي، والانسجام الأسري، والاضمحلال المعنوي، والمجتمع الذي تكون الجامعات في طبيعته لا بُدَّ أن تكون بيئة متديّنة تتحلّى بالإيمان والمعارف الدينية التي تستتبع العمل طبعاً. لقد كانت غاية بعثة الأنبياء وقف معاناة الإنسانية من فراغ العدالة. إن عناصر الأزمة قائمة: فالغرب لم ينزع عدوانيته للاستحواذ متذرعاً بالمصالح السياسية والاقتصادية، وما زال يفصل في مواقفه بين القيم والمال، وما زالت شريعة الغاب قائمة في نفوس قادة الغرب بشعارات الحريات وحقوق الإنسان؛ ما يدفع إلى التشدد في الالتزام بالقيم في التعاطي مع العلم، وأفضل من يقوم بهذا الدور هو الدين»².

1- حوارات العلم والدين، مهدي كلشني، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، 2009م، ص 55.

2- لعلم في مشروع الإمام الخامنئي، عبد الله زيعور، دار المعارف الإسلامية، بيروت، 2019م، ص 151.

وظيفة الدين والفلسفة؛ رعاية العلم وحمايته لإبقائه ظاهرة إنسانية، وتوجيهه في إطار يمنع استغلاله وتحولَه إلى أداة فتك بالفرد والمجتمع وهذا ما يصطلح عليه بـ «أنسنة العلم» وتوظيفه، وتلك الرعاية يجب أن تشمل: قيم البحث العلمي، وقيم المجتمع العلمي ومعايير السلوك العلمي، ذلك أن موضوعات البحث العلمي غالبًا ما تتضمن نتائج اجتماعية وسياسية وأخلاقية. فالقيم الأخلاقية الحاكمة لعمل العلم في الغرب هي قيم نفعية لا تلزم الباحث على الالتزام بها، خصوصًا عندما تلمع الفرصة والمنفعة لاختراقها. من هنا، يأتي دور الدين ليؤمن الضمانة لحسن سير العمل بالقيم ولتشكيل الوازع النفسي والداخلي الفاعل، عندما تغيب الرقابة الإدارية وتبقى رقابة الله تعالى. ويمكننا هنا أن نختم بالقول: إن أرضية مشروعَي: العلم، والدين واحدة ويشكلان مرتكزين لنظام فلسفي الطابع، يشكل في مستوى معين مشروعًا لفهم الحقيقة كاملةً وصريحة.

إن الفصل بين الجهتين يؤدي من جهة إلى تسطيح العلم، والمبالغة في تقدير قوته وصولاً إلى تأليهه، وعدم القدرة على استيعاب تطوراتهِ المتسارعة. ومن جهة أخرى، يؤدي الفصل إلى عزل الدين عن ثقافة الأمم المتحركة بفعل إنتاج المادّة العلميّة، فندخل في مجهول منطق المنفعة، وما تُسوّغه من حروب وأزمات اجتماعية بين الأمم.

العلم الحديث يلاقي طروحات الدين من جديد

فالثورة التي حدثت في علمي: الفيزياء، والكوسمولوجيا (علم الكون) مع بدايات القرن العشرين غيرت النظرة المادية إلى العالم التي سادت في القرون الماضية؛ فالمراقب الواعي في فيزياء الكم أصبح عنصرًا أساسيًا ومشاركًا في عمليات القياس العلميّة، وانبثاق الكون من انفجار عظيم منذ حوالي 15 مليار سنة غير مفهوم الزمان والمكان، وكشف عن قصة عجيبة تتصل بمجموعتنا الشمسية وبكوكبنا الأرضي، وبنشأة الحياة والتطور البيولوجي لتنتهي بظهور الإنسان، ويعبر أغروس وستانسيو عن النظرة الجديدة إلى العلم، والتي تلاقي روح الدين ورسالته بالقول: «أما في ما يتعلّق بالدين، فالظاهر أن مستقبل النظرة الجديدة يوحى بالعودة بثقافتنا إلى الإيمان بوجود الله الواحد، وبإعادة التأكيد

على الجانب الروحي للإنسان»¹.

إن أهل الفيزياء بمعظمهم مقتنعون أن الكون يعمل بهدي وإيقاع متناظمين بتوجيه من قوة راشدة وعاقلة، وكأنه هناك نازعاً سريعاً يقود حركة المادّة الصّماء إلى الأرقى ونحو النظام والتناظر والوعي في أعماق حركة موجودات الكون، وأنّ جماليّة المشهد تتطلّب استحضار طرفين اثنين: العقل الإنسانيّ مع مادّة الكون الصّماء. وبتعبير آخر: المجرّد مع غير المجرّد، وعندما يحاول كل من الفيلسوف والفيزيائيّ تفسير الطاقة الكامنة وراء الانفجار العظيم، أو البيغ بانغ، والذي نتج عنه الكون، حيث فيه نحيا يصبح تفسيرهما متقارباً: إن ما هو خلف حائط بلانك² يطلق عليه علماء الفيزياء والفلك التماثل المطلق، فيما يسمّيه الفيلسوف المؤمن: الله... إنّه التماثل المطلق، حيث سيادة الكلّيّة اللّازمنيّة لتمام التكامل. وبجانب آخر، أكّدت قوانين الرياضيات الاحتماليّة استحالة الصدفة وعجزها كسبيل لتفسير حركة الكون الرائعة بنظامها البديع في روعته، والحاكمة في العوالم المتناهية في الصغر وفي الكبر في آن معاً؛ أي من أعماق الذرّة إلى أعماق المجرّة. وهكذا، فإنّ العلم التجريبيّ يخطّ اليوم شيئاً فشيئاً رسالة التكامل في الوجود ويقرّر أنّ صورة الكون «الذكيّ» والذي يحدّد مصيره بنفسه غير موجود؛ بل هو محكوم بنظام صارم متماسك ويتماثل على مستوى الأبعاد كلها يسير به الأحياء نحو مزيد من الدقة والارتقاء، تماماً كما عبّر عنه الفيلسوف جان غيتون: «إنّ المفهوم الفيزيائيّ الجديد قد جرّد المادّة من ذاتيّتها وأتاح في الوقت ذاته فرصة الأمل بسبيل فلسفيّ جديد، سبيل ما بعد المادّيّة، منفتح على الانصهار بين المادّة والروح، وفي إطار صياغة التداخل بينهما؛ أي بين «الوعي» الذي تتصرّف به المادّة وخضوعها للأعمى للقانون، وفي طرفي عالما المستور، فوق واقعنا وتحتة تقف الروح، وربما هناك في قلب الغرابة الكوانتيّة تتلاقى أرواحنا البشريّة، وروح

1- العلم في منظوره الجديد، روبرت اغروس وجورج ستانسيو، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد 134، 1989م، ص 147.

2- حائط بلانك هو ما أطلق على النظرية العلمية التي تبناها ماكس بلانك والتي تقول «كلما تقدم العلم يصل إلى ادق مما وصل اليه، لكنه حتما سيصل إلى نهاية المطاف وهو حائط كبير سنصطدم به ولن نقدر علي المرور منه ' حاجز سيمنعنا من تطبيق قوانين الفيزياء والطبيعة والعقل البشري سوف يعجز بشكل صريح عن العلم وهذا الحائط هو حائط بلانك».

هذا الكائن المتعالي، والذي ندعوه الله»¹.

لقد جسّد علماء أفذاذ دخلوا التاريخ بعباءاتهم العلميّة الجبّارة تلاقي الدين والعلم في نفوسهم وقراؤها في أبحاثهم المتقدّمة، فها هو اينشتاين الذي عرف بإيمانه العميق بالله القادر المُنظّم للكون يقول في محاضرة له في جامعة برينستون: «أريد أن أعرف كيف خلق الله العالم، إنَّ الإيمان الشعوريّ العميق بحضور القوّة المُسبّبة العليا، المكتشفة في الكون الغامض تُشكّل فكرتي عند الله، إنَّ العقل البشريّ لا يقدر على احتواء الأبعاد الأربعة للكون وتصوّرها، فكيف يمكن تصوّر صورة للإله، والذي عنده الألف سنة والألف بعدها شيء واحد؟». أمّا التلاقي والتكامل بين موجودات الكون والعقل البشريّ فقد عبّر عنه كلاً من: دايسن، وميلن. يقول فريدمان دايسن: «كلّما ازدادت دراسة للكون وفحصاً لتفاصيل هندسته وجدت مزيداً من الأدلة على أن الكون كان يعرف بطريقة ما أننا قادمون»². وينتهي الفيزيائيّ ميلن بالقول: «أمّا العلة الأولى للكون فأمرها متروك للقارئ لكن الصورة التي لدينا لا تكتمل من غير الله»³.

لعلّ الأنموذج الأرقى لتلاقي الدين والعلم عملياً لا نظرياً، هو في التجربة الرائدة للجمهورية الإسلاميّة في إيران التي تشهد وما تزال ثورة علميّة حقيقيّة فاقت كل التوقّعات، حيث نهضت على الرّغم من الحصار والظلم طوال أربعين عامّاً في بنية تحمل الإسلام كمشروع حضاريّ فتنتطلق في غزو الفضاء، وفي عالم النانوتكنولوجيا، وتُسهم مصانعها الجبّارة للطائرات والسفن والسيارات وسواها في تلبية احتياجات أمة تفوق الثمانين مليون نسمة! وتُقدّم منظومة أخلاقيّة للعلم تفوّقت بمضمونها الإنسانيّ على الغرب، الذي استخدم العلم سلاحاً للتوسّع والهيمنة، وسرقة ثروات الشعوب المستضعفة، وخاض به الحروب، وسفك به دماء عشرات الملايين من البشر...

إنّ أفضل تجلّيات التكامل بين العلم والدين تكمن في فرادة الطرح الإسلاميّ وفي رؤيته السامية لأخلاقيات العلم والتي تُختصر عناصرها كما يلي:

1- الله والعلم، جان غيتون، دار عويدات الدولية، باريس 1992م، ص 84.

2- العلم في منظوره الجديد، اغروس وستانسو، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد 134، 1989م، ص 68.

3- المصدر نفسه، ص 64.

- 1- إن نبراس العلم بيد الله تعالى.
- 2- العلم شرف وسمو إنساني، وباب لتحقيق العدالة على الأرض.
- 3- محورية العلم هما الإيمان والأخلاق وهما وحدة متكاملة لا تنفك عروتها.
- 4- العلم طريق للكفاية والنهوض والاقتدار.
- 5- العلم ملك الإنسانية جمعاء ولا يحق لأي كان احتكار العلم، أو ابتزاز الآخرين به.

6- يجب الالتفات إلى الآثار الثقافية المدمرة لسوء استعمال التقنيات العلمية¹.
 إن هذه العناوين من شأنها، وقبل أي حساب آخر، حماية للعلم من بعض أهله، ومن السلطات السياسية التي تستثمر فيه خدمة لمشاريع ذاتية أو توسعية، وتاريخ الغرب عمومًا والولايات المتحدة خصوصًا لا يُبشّر بالخير لو استذكرنا قصف المدن الآهلة والعزل بالأسلحة النووية خلال الحرب العالمية الثانية، وتهديدها الدائم لكل من يشق عصا الطاعة عن مشروع الهيمنة الأميركية.
 لقد أظهر تفشي وباء كورونا حدود تحكّم العلم في الظواهر الطبيعية بعدما قدّم الغرب العلم أن لديه مفاتيح الأمان والتطوّر والازدهار، مع أنّ العلم نفسه لا يقول بذلك؛ بل يؤكد، وكما أوضحنا سابقًا، أنّ كل حقيقة علمية مرهونة بتقدّم وسائل الفحص والقياس. ولذا، فهي مؤقتة وقابلة للدحض باستمرار. لقد أكّدت مسيرة العلم على ضآلة القدرة البشرية، وأنّ ما لا تعلمه أكثر بكثير ممّا تعلمه، وجاءت جائحة كورونا لتؤكد العجز والإقرار بالعجز، ولتزيد الإحباط والتشاؤم الذي تعانیه البشرية اليوم. ثمّ اهتزت النظرة إلى العلم كمصدر للمعرفة المطلق كما يقول الحداثيون، وتبيّن أنّ الإنسان عندما استعمل العلم وصل إلى الحروب الكبرى وسباقات التسلّح. لقد كابر الغرب ولا يزال بالتعاطي مع العلم، وبالغت الحداثة في نفي الغيب عن العلمية والعقلانية، واقتصرت دراسة الإنسان على اعتباره مادة بيولوجية قابلة للبحث.

بما أنّ الأزمات تكشف ما هو مستور، فقد كشفت جائحة كورونا عن خواء البنية النفسية والروحية وهشاشتها لإنسان اليوم، فسيطر الهلع وتراجعت المعنويات

1- عبد الله زيعور أخلاقيات العلم عند الإمام الخامنئي، دار المعارف الحكيمية، بيروت، 2015م، ص 121.

وتصدعت المناعة النفسية، هنا كان تدخل الدين محكمًا في تمتين الطاقة الروحية، وفي تقديم منظومة قيمية وسلوكية، فحرم الفساد، وإهلاك الحرث والنسل، وحث على مداراة الطبيعة حماية للبيئة، ودعا الى التخلص من الخرافة، مثلما دعا إلى التضامن، والإيثار، والحفاظ على الصالح العام. ظهر الدين أمانًا للعلم في مساره الإيجابي تحديدًا للتخفيف من عذابات الناس، والعمل من أجل نفعهم وسعادتهم. يقف العلم والدين متراصين اليوم في مشروع إنقاذ البشرية وسعادتها، لإنهاء مرحلة شقائها، وتبقى الأرجحية للدين في مقاربتة الأشمل من العلم، لكونه يوجه الإنسان إلى فلسفة ومنظومة قيم إنسانية وكونية تجعله في حالة تكامل مع عالمه ومع الوجود برمته. إن تجربة كورونا التي فاجأت البشرية أعادت الكلام عن الدور المتعاظم للدين كحاجة ماسة للفرد أكثر من أي وقت مضى، وقد تمهد التجربة لبناء منظومة جديدة لدور الدين ومهامه، تبدأ في الاعتراف بدور أكبر له يتسع للمتدين ولغيره في المجتمع.

أمام حالة الارتباك العالمي، تتقدم أولوية مشروعات الصحة والتعليم والبحث العلمي والاقتصاد والتكاتف الاجتماعي، وتتقدم أولوية العلم بينهما لإيجاد اللقاح المناسب. والمفارقة أن الوباء وهو في ذروته، كشف عن حاجة الإنسان إلى الهواء، والى الأوكسجين قبل السلطة والثروة والجاه!! كان الغرب بالصورة التي لم نتوقعها أبدًا: عجز، وضياع، وانقسامات، وصار المطلوب قبل أي وقت مضى، مطالعة علمية أخلاقية تطلق موثيق تربط العلم ببعيد إنساني جديد...

إن من واجب الدين اليوم التصدي لجشع المقاربة الغربية الداعية التي تُقدم أولوية الاقتصاد والإنتاج والمنفعة على حياة الإنسان وصحته، والتركيز على سقوط نظرية مناعة القطيع، وفشلها في الحد من الوباء، وفي خلق الأمان النفسي والروحي للإنسان، والأمر اليوم ليس مُتعدّرًا بعد خيبة المجتمعات الغربية من العلم واستجابتها للفضاء الروحي ولجوئها إلى الصلاة فرادى وجماعات في ساحات العواصم الأوروبية والأميركية، داعين الله أن يحمي البشر من الموت الذي حصده أرواحًا، وبوتيرة متصاعدة مع كتابة هذه السطور...

خاتمة

لقد أوضحنا في ما سبق سُبُل التكامل بين العلم والدين، وأوضحنا خلفيات التعارض المفتعل وسُبُل تفاديه، فعندما يقدم العلم الآلية جواباً عن سؤال: «كيف» يقدم الدين المعنى جواباً عن سؤال «لماذا»، فيشتركان عملياً في البحث عن نموذج معرفي للحقيقة، على أن حاجة العلم إلى الدين أشد؛ فالعلم بلا دين أعمى البصر والبصيرة، وهو خطر ماحق على أصل بقاء الإنسانية. لذا، واستناداً إلى ما سبق، وعلى ضوء تجربة جائحة كورونا، نقدم في ختام البحث باقة من الأفكار والمقترحات، عسى أن تضيء درب الحوار؛ فالتنسيق والتكامل في الأهداف بين الطرفين، وبالطبع مع احترام الفوارق في الأدوات والأساليب:

- 1- ضرورة إعادة النقاش بموقع الدين في حياة الفرد والمجتمع، والسعي إلى تعميم إيجابياته لتطال البشرية بعد عودتها مؤخرًا إلى الدين بوصفه منقذًا وأمانًا يبقى مع الإنسان في نهاية المطاف.
- 2- الدعوة إلى تظهير وهج القيم الدينية في عمقها الروحي، والتمييز بين طروحات الدين ببعدها المتسامي مع عناوين أصحاب المصالح والمشاريع الإرهائية ممن ينسبون أنفسهم إلى الدين.
- 3- احترام حدود وميادين عمل الطرفين، والدعوة إلى عدم تدخل طرف في ميدان الآخر، والعمل على صناعة المساحة التكاملية بينهما بعد أن بيّن أن الدين يحتاج إلى العلم، والعلم يحتاج إلى الدين.
- 4- الدعوة إلى أن يطلع الباحثون التجريبيون على قضايا الدين والفلسفة أطلاعًا جيّدًا، مثلما يطلع رجال الدين على العلوم المعاصرة، وعلى الإشكاليات المثارة من حولهم، فهم معنيون بالإجابة عنها مهما تفادوا الانخراط فيها.
- 5- الدعوة إلى التمييز بين قوانين العلم الصارمة والقراءات الفلسفية، أو الشخصية التي تنبت حولها، حتى ولو كانت من العلماء أنفسهم وصولاً إلى عدم تقويل العلم ما لم يقله.
- 6- الدعوة إلى إلزام أهل العلم بما ألزموا به أنفسهم، وحصر الحقيقة العلمية في إطار ما تؤكده التجربة والحواس.
- 7- تعريف العامة من الناس على حدود العلم، أين يبدأ وأين ينتهي؛ لأن الخلط بين العلم وغير العلم قد أضرب بالعلم، وكثيراً ما تحدث أهل

- الإلحاد باسم العلم فتلقّف الناس ممّن انطوت الحيلة عليهم تلك الآراء كحقائق علميّة لا تقبل النقاش!
- 8- ضرورة إعادة تعريف موقع العلم ودوره في المجتمع بعد اهتزاز صورته كخلاص للإنسانيّة ومحدوديّة تحكّمه في قوانين الطبيعة.
- 9- الدعوة إلى إعادة النظر بأولويّات الإنفاق على البحث العلميّ بعدما تقدّمت أولويّة الصحة والتعليم إيجاد اللّقاح المناسب على ما سواها، فالصحة قبل الاقتصاد، وعلى الجهات المُتخصّصة رفع الصوت، وتأكيد أولويّة إنقاذ الأرواح قبل تكديس الثروات.
- 10- ضرورة التنبّه إلى تدريس القيم الدينيّة ببعدها الإنسانيّ ولا سيّما في الجامعات بوصفها «أيديولوجيا الدولة الحديثة»، فهناك من يقول: إنّ أشرس المعارك في مرحلة العولمة تلك التي تُخاض في الجامعات بصمت حول القيم.
- ولعل أوضح ما حكي في التكامل بينهما، ما قاله العالم الشهير في الفيزياء والرياضيات فريدمان دايسون الذي رأى أنّ «العلم والدين نافذتان تعطي كلّاً منهما رؤية ومشهديّة مختلفة للكون نفسه»...

لائحة المصادر والمراجع

- 1) موسوعة جامعة ستانفورد للفلسفة، ترجمة عبد الحفيظ، Hekmah.org، 2019.
- 2) التصميم العظيم، ستيفن هوكينغ وليوناردو مالينو، دار التنوير، بيروت، 2015م.
- 3) الدين بين معطيات العلم وإثارات الإلحاد، منير الخباز، دار المعارف الحكميّة، بيروت، 2018م.
- 4) أخلاقيّات العلم، ديفيد رزنيك، في: سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد 316، 2005م.
- 5) رؤى مستقبلية، ميشيل كاكو، عالم المعرفة، الكويت، عدد 270، 2001م.
- 6) فلسفة العلم في القرن العشرين، يمنى الخولي، عالم المعرفة، الكويت،

- عدد 264، 2000م.
- (7) فلسفة العلم، صلاح قانصو، دار التنوير، بيروت، 1983م.
- (8) فلسفة الحضارة، ألبرت أشفيتسر، ترجمة: عبد الرحمن بدوي. www.kutub-pdf.net
- (9) الله والكون برواية الفيزياء الحديثة، عبد الله زيعور، دار المعارف الإسلامية، بيروت، 2017م.
- (10) فلسفة الفيزياء، محمد عبد المطلب، منشورات وزارة الإعلام العراقية، بغداد، 1977م.
- (11) أوجه التدخل بين الفيزياء والميتافيزياء، عبد الله زيعور، في: مجلة المنطلق، بيروت، عدد 119، 1998م.
- (12) موجز في تاريخ الزمان، ستيفن هوكينغ، دار أكاديميا، بيروت، 1990م.
- (13) حوارات العلم والدين، مهدي كلشني، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإنساني، بيروت، 2009م.
- (14) العلم في مشروع الإمام الخامنئي، عبد الله زيعور، دار المعارف الإسلامية، بيروت، 2019م.
- (15) العلم في منظوره الجديد، اغروس وستانسو، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد 134، 1989م.
- (16) الله والعلم، جان غيتون، دار عويدات الدولية، باريس، 1992م.
- (17) أخلاقيات العلم عند الإمام الخامنئي، عبد الله زيعور، دار المعارف الحكيمية، بيروت، 2015م.